أصول المعارضة السياسية

في الإسلام

عبود العسكري

أصول المعارضة السياسية في الإسلام
عبود العسكري
الطبعة الأولى ١٩٩٧، ١٠٠٠ نسخة

التنضيد والإخراج الفني: بنان قسطنطين

دار النمير للنشر والتوزيع
سورية – دمشق – ☒ ٥١٧٥ – ☎ ٢٢٢٦٢٠٧

دار معد للطباعة والنشروالتوزيع
سورية – دمشق – ☒ ١٠٨٧٧ – ☎ ٢١١٧٦٦٥

المقدمة

إن العلاقة بين السلطة والمعرفة – بكل أشكالها – قديمة بدأت مع فجر التاريخ عندما تشكل الأفراد في جماعات بدائية أولية بسيطة، فكان لها زعيم يتولى أمرها، ويعاونه رجل آخر يبرر لهذا الكبير في قومه، تصرفاته، ويسبغ عليها صفة القداسة حيناً، والتأليه حيناً آخر، تلك كانت وظيفة صاحب المعرفة في المجتمع البدائي، ثم تطورت هذه الوظيفة المعرفية السياسية عبر الزمن، حتى صارت صناعة لها أصولها وتقاليدها، وعلم له مدارسه ومراتبه وفنونه.

والحاكم – مهما كان شكله – يحاول أن يجمع بين القوة والمعرفة، ومن النادر اجتماعهما في شخص واحد، إلا في حال الرسول الملك، والرسول القائد للدولة دينياً وسياسياً، وفي الطرف الآخر ظهر خلال التاريخ الملك المتأله الذي يدعي المعرفة والربوبية.

إن السلطة في حاجة مستمرة إلى الفئة المتخصصة، المثقفة، العالمة، لتسيير أعمالها، وتنفيذ برامجها، وفرض سلطانها، وتدعيم أركانها، واستمرار واستقرار وجودها، فالحاكم يعرف أن لا سلطة سياسية له، ولا مشروعية لحكمه، ولا إخضاع للمجتمع – حتى لو كان المجتمع طوطمياً بدائياً – بغير امتلاكه للسلطة المعرفية المتمثلة في: المثقف، العالم التكنولوجي، الفقيه الديني، وهؤلاء يتعامل معهم ليس كأفراد تحت ظل حكمه، بل كممثلين لقطاعات شعبية واسعة، يختارهم، أو يصنعهم حسب المواصفات التي تخدمه، ومن لاتنطبق عليه مواصفات السلطة من رجال المعرفة والعلم، فإنه يُبْعَد، أو يبتعد من تلقاء نفسه طلباً للسلامة والأمن الشخصي، وإلا فالسجن والإبعاد والتهميش الفكري والاجتماعي هما مصيره.

وكلما كانت بطانة الحاكم، عالمة، مخلصة، واعية، رافعة مصلحة الوطن شعاراً

وهدفاً دائماً تسعى لتحقيقه، كان قرار الحاكم، فاعلاً، ومفيداً، وسديداً ومحققاً لمصالح الجماعة حاضراً ومستقبلاً، لأن حكمة القائد وعقلانيته تظهر في استشارته لأهل العلم والاختصاص، والاستئناس برأيهم، وخبرتهم.

وهنا يثار التساؤل الهام عن علاقة الفقهاء بالسلطان، وعن شكل هذه العلاقة، وحدودها، ومواصفات أطرافها وغاياتهم..؟

إن هذه العلاقة مسألة جوهرية لايمكن غض الطرف عنها، ونحن في زمن عربي اسلامي متدهور من سيء إلى أسوأ، نحو نهاية لايُعرف لها قرار، ومن صور هذا التدهور، المعارضة المسلحة للحاكم، وكأننا أمام حالة سياسية، واجتماعية، وفكرية، لاتعرف الوسطية، ولا علاقة لها بسنن الآفاق والأنفس. فإما أن تكون المعارضة للحاكم دموية عنيفة تثير القلق والفزع، وتضحي بالأنفس دون اعتبار لعاقبة الأمر، وإما أن تكون منسحبة نهائياً من ساحة الفعل الاجتماعي، وكأن قضايا المجتمع لاأهمية لها، وهنا لايصح عليها إطلاق اسم المعارضة أصلاً، بينما هناك من أكل خبز السلطان وضرب بسيفه تنفيذاً لمصالحه الشخصية.

إن عدم مَدّ الجسور مع الحاكم - مهما كان شكله - من قبل أصحاب المعرفة وأهل الخبرة، من أجل الصالح العام للأمة، هو الذي جعل الساحة حول الحاكم خالية لفقهاء السوء ولحاشية لايهمها إلا مصالحها ومكاسبها، لأن تواصل المخلصين من أهل المعرفة والعلم مع الحاكم، هو الذي يحقق استقرار الجماعة، وامكانية اختراق حاشية السوء، التي ابتلي بها أغلب الحكام، ومن خلال هذا التواصل يصل الحاكم إلى شعبه بصورته الحقيقية، وتصل هموم ومشاكل الشعب إلى حاكمه، بدون تشويه أو تزوير.

إن الموضوع الجدير بالاهتمام في التجربة السياسية الاسلامية، هو تلك الجدلية بين النظرية السياسية التي تقول بوحدة الشريعة، وبين النهج السياسي العملي، فمن الواضح أن الواقع لا يماشي النظرية السياسية - إذا وجدت - في كثير من الأحوال، بل إن الواقع هو الذي يترك الأثر الأعمق في النظرية ذاتها، لذا جاءت النظرية السياسية عند المسلمين تابعة للواقع ومبررة له، فكانت نظريات سياسية مثالية بعيدة عن الواقع المعاش

في الساحة السياسية العملية، وهذا مايبرر ظهور محاولات التوازن والتناسق والتنازلات التصالحية لإنقاذ واستقرار الجماعة مُوَحَدَةً، حتى لو كانت تحت ظل حاكم ظالم ومتغلب!!

وتزداد حالياً أهمية استقرار الجماعة، ووحدتها، نتيجة للتحديات الحضارية، والتمزق الحاصل في كيان الأمة، ومعاناة بعض أجزاء هذا الكيان من أمراض اجتماعية وسياسية تمثلت في ظهور التطرف الديني من جهة، وطريقة رد الحكام على هذه الحركات من جهة ثانية، فغاب الحوار، وساد التكفير المتبادل والتصفية الجسدية بين الطرفين، ورفع الاثنان شعار الخلاص من الآخر، بل إبادته وتدميره، هو في صالح الجماعة، وأمنها، واستقرارها، لأن هذا الآخر خارج على تقاليد ومعتقدات الجماعة.

لقد اعتمد الطرفان - الحكومات والمعارضة المسلحة - على آراء فقهية لتبرير ممارساتهم في الساحة السياسية، وكل طرف لديه من الأسس النظرية ما يؤيد ممارساته العملية، وهنا يبرز السؤال الهام والمصيري على مستوى الفرد والجماعة وهو: هل نستطيع صياغة شكل للمعارضة السياسية للحاكم في الاسلام؟ على أن تكون هذه الصيغة منسجمة مع مبادئ وأصول الاسلام معتبرين أن ظاهرة التطرف الديني هي صورة مشوهة لعلاقة الفقهاء بالسلطان، وتحتاج هذه العلاقة إلى رسم حدودها، ووضع ضوابطها، باعتبارها أحد أسباب العنف الممارس في أكثر من بقعة اسلامية.

وبعد: أتمنى أن أكون قد حققت أحد المسائل السبعة التي تحدث عنها شمس الدين البابلي عندما قال: «إن على أي مُؤَلِّفٍ جديد أن يعالج أحداً من المسائل السبعة التالية: أن يبدع شيئاً جديداً، أو يوضح أمراً غامضاً، أو يختزل عملاً مسهباً، أو يرتب دراسة مشوشة، أو يجمع شتات بحث مبعثر، أو يصحح دراسة خاطئة..».

ولقد سبقنا الثعالبي في بيان عدم إمكانية الحصول على كتاب كامل من صنع البشر، عندما قال في يتيمة الدهر: «.. وكلما أعرته على الأيام بصري وأعدت فيه نظري تبينت مصداق ماقرأته في بعض الكتب: إن أول مايبدو من ضعف ابن آدم، أنه لايكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه..».

لذا أرجو من كل قارئ لهذا الكتاب أن يزودني برأيه، مؤيداً، أو معارضاً للأفكار التي وردت، فيدلني على مواقع الزلل، ومخاطر الطريق، أملاً في تعميق الصواب وتعميمه.

وختاماً أسأل الله العفو والمغفرة، وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه ومحاولة في إضاءة جانب من مشكلة التطرف الديني، والله من وراء القصد.

الرقة

في يوم الجمعة ٢/محرم/١٤١٨

٩/آيار/١٩٩٧

عبود العسكري

سوريا – الرقة – ص.ب ١١٩

الفصل الأول

«سمات دعوة الأنبياء والرسل في القرآن الكريم»

مبحث تمهيدي

المبحث الأول: الدعوة إلى توحيد الله

المبحث الثاني: البلاغ المبين

المبحث الثالث: الصبر والحلم

المبحث الرابع: قواسم مشتركة في دعوة الرسل

مبحث تمهيدي

تمثل أحداث قصص القرآن قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات البائدة وتبين مناشطها المتنوعة، ومع أن قصص الأنبياء أبرز ما في القرآن من تاريخ – وللتاريخ أهميته في حياة الأمم العاقلة – إلا أن المحاور وزوايا الرؤية قد تعددت فيها، فبرزت إلى جانب الأنبياء شخوص قاوموا الحق وحاربوه أمثال: فرعون، الملك الذي حاج إبراهيم، أبو لهب،.. الخ، وشخوص آخرون قاموا بأدوار إيجابية في تأييدهم للأنبياء والرسل منهم: مؤمن آل فرعون، السحرة، أبو بكر، بلال.. الخ.

أما المؤيدون للرسالة عبر التاريخ فهم على الأغلب من الفقراء والمساكين والعبيد، ولا يخلو الأمر من وجود مؤيدين من الطبقات الاجتماعية العليا في صف الرسول، وضمن صحابته التي صهرتهم الدعوة الجديدة، لتخلق منهم طبقة المبدأ، والعقيدة، فهما النسب الجديد لهذه الجماعة، ولهما الولاء، دون العشيرة والأهل.

لقد عانى الأنبياء والرسل كثيراً من جفاء ذوي القربى، وعداوتهم لهم. فأحياناً كان العدو الابن، كإبن نوح عليه السلام، وكانت العدو الزوج، كزوج لوط عليه السلام، وكان العدو الأب، كأبي إبراهيم عليه السلام، وأحياناً أخرى كان العدو العم، وابن العشيرة، ويلاحظ من هذه المفارقة بين المؤيدين، والناقمين، أن النسب ليس ضرورياً وليس هاماً في الدعوات والرسالات السماوية في صفوف المؤيدين للرسالة، التي جاءت لتخلص الإنسان من عبادة أخيه الإنسان، والدعوة إلى

المساواة والعدل بين الجميع وذلك بعبادتهم لإله واحد.

إن المستكبرين الذين عارضوا الرسل، لم يكن موقفهم نتيجة لقناعتهم بكذب وبطلان ما يدعو إليه الرسول، بل لخطر هذه الدعوة عليهم، لأنها تسعى لإزالة الاستكبار والتأله البشري، والاستعباد، وبهذا يخسرون مراكزهم، وامتيازاتهم اللاشرعية في المجتمع، لذا لم يدخروا جهداً أو وسيلة في سبيل إنهاء دعوة الرسول بأي صيغة كانت، سواء بالقتل أم بالتهجير فإذا فشلوا بالترهيب، فأنهم يطمعون أن يترك الرسول دعوته بترغيبه بالمال والجاه، لأنهم يصورون الرسول لشعوبهم المغلوبة بأنه طالب ملك ومال! وما دعوته لعبادة الله، وترك الأصنام، إلا طمعاً في رئاسة وجاه!. إلا أن رد الرسل وسلوكهم ينفي هذا الاتهام.

ونجد في قصص الأنبياء التنوع الموضوعي، من أمثلته: الأساس العقيدي في قصة إبراهيم عليه السلام، بدعوته إلى توحيد الله، وهذا الأساس مشترك في دعوات الأنبياء والرسل جميعاً، والأساس الاقتصادي في قصة شعيب مع قومه، والصناعي في قصة داود، والقضائي في قصة سليمان، والتخطيطي في قصة يوسف، والتبشير والإنذار في قصة يحيى، والأخلاقي في قصة لوط، والروحي في قصة عيسى رداً على ايغال اليهود وقتئذ في المادية وحرفية النصوص والرسوم.

ثم تأتي الجهود المتكاملة في تكوين الفرد والأسرة والمجتمع، مكملة لمسيرة التوحيد، مستفيدة من تراث النبوات السابقة، في سبيل حياة كلها عدل ومساواة، ضمن رسالة سماوية خاتمة لوحي السماء، تجلت في رسالة الإسلام، الذي جاء حجر الزاوية، وبه تم البناء الإنساني في أكمل صورة يمكن أن يحققها الإنسان على هذه الأرض.

لكن أحداث التاريخ التي ذكرت في القرآن جاءت مثالاً لا حصراً، لأن هناك تجارب بشرية، مع أنبياء، لم يرد ذكرهم في القرآن، قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا

رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك..﴾.[1]

لكن الصبر في مرحلة الدعوة يبقى هامشياً، بالنسبة لضرورة الصبر والحلم كأخلاق عامة في مرحلة بناء الدولة، فقد لاقى موسى عليه السلام من عنت ومادية بني إسرائيل الشيء الكثير، فمن طلبهم للمعجزات، إلى عبادتهم للعجل، ومن اتهامهم للرسول بأنه لم يغير من حالهم شيئاً، فهم ليسوا أحسن حالاً عما كانوا عليه في مرحلة الاستعباد، إلى عدم تلبيتهم لدعوة موسى عليه السلام لدخول فلسطين، متذرعين بوجود قوم جبارين، وفي هذا غاية الذل والجبن.

قال تعالى: ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ۞ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها..﴾.[3]

لقد نفذ صبر موسى، بعد كل الجهود التي بذلها من أجل بناء جماعة ذات أخلاق تتسم بالكرامة والحرية، ويبدو أن أخلاق بني إسرائيل لازالت مطبوعة بطابع الاضطهاد والعبودية التي عاشوها في مرحلة الرق والاستعباد على يدي فرعون.

أما خلق الحلم الذي تحلى به الأنبياء والرسل جميعاً فقد تجلى في الأناة والتثبيت في الأمر، وما يلزم ذلك من ضبط للنفس وكظم للغيظ، وعفو عن السيئة، وصفح عن الخطأ.. الخ.

لقد جاءت تجارب الأنبياء والرسل في علاقتهم مع الملوك ضمن نماذج قليلة

---

[1] سورة غافر: ٧٨.

[2] سورة الأعراف: ١٢٩.

[3] سورة المائدة: ٢١-٢٢.

للحكام تبين مشاهد من الحكم، فكانت تجربة إبراهيم عليه السلام مع ملك قومه، وتجربة موسى عليه السلام مع فرعون، وهما التجربتان الأكثر وروداً في القرآن الكريم، بالنسبة لغيرهم من الأنبياء والرسل. فقد غطت علاقة موسى عليه السلام مع فرعون مساحات واسعة من النص القرآني، «فموسى أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن، لأنه ذكر (١٣٦) مرة، ثم يليه إبراهيم عليه السلام فقد ذكر (٦٩) مرة، أما نوح عليه السلام فقد ذكر (٤٣) مرة، ثم يوسف ولوط عليهما السلام فقد ذكرا (٢٧) مرة، ثم يأتي ذكر عيسى عليه السلام (٢٥) مرة، وسليمان عليه السلام يذكر (١٧) مرة، أما خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، فقد ذكر (٤ مرات)».[1]

فمن الأنبياء من كان ملكاً مثل داود وسليمان عليهما السلام، ومنهم من كان ربيب ملك كموسى عليه السلام، وأكثرهم كانوا من عامة الناس وأشرفهم حسبا.

باستعراض دعوات الأنبياء في القرآن الكريم نجد أن أغلبهم لم يتجاوزوا مرحلة الدعوة، إلى مرحلة إقامة الدولة على أسس الدعوة، إلا دعوة محمد عليه الصلاة والسلام، التي كانت المثال الأوحد لانتقال الدعوة إلى إقامة الدولة في حياة الرسول، فكانت دولة العقيدة.

لكن ما هو الأسلوب الذي اتبعه الأنبياء والرسل في دعواتهم لأقوامهم؟ تميزت دعوة الأنبياء بسمات عامة، نجدها واضحة باستعراض بعض الآيات القرآنية التي تصف التجربة النبوية على مدار التاريخ الإنساني وسنرى في المباحث الآتية سمات دعوة الأنبياء.

---

[1] عبد الباقي، محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (بيروت: دار احياء التراث العربي، [د.ت])، صفحات متفرقة.

المبحث الأول

الدعوة إلى توحيد الله

لعل من أهم سمات دعوة الأنبياء، هي دعوة أقوامهم إلى توحيد الله، وعبادته، وتحطيم الأصنام، وعصيان المستكبرين المتألهين من البشر، ولهذا نشأ الصراع واشتد، بين الرسول، وبين الطغاة الظالمين، الذين هددت وزلزلت مراكزهم، وتعرضت مصالحهم للخطر. وكي يثبت الأنبياء والرسل صحة دعوتهم التوحيدية لجأوا إلى عدة براهين منها:

١- بطلان تعدد الآلهة: لقد كان الإنسان القديم يعبد-الظواهر الطبيعية فيجعل الشمس إلهاً، وكذلك القمر، والنجوم، والرياح، والأنهار.. الخ. وذلك لعجزه عن تفسير حدوث هذه الظواهر التي كانت تلحق به ضرراً مادياً، وتثير فيه فزعاً نفسياً، مما جعله يعبدها، ويقدم لها القرابين البشرية، عسى أن ترحمه.

قال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ۞ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ۞ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ۞ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ۞ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾.[1]

---

[1] سورة الانعام: الآيات ٧٥-٧٩.

«ففي عصر إبراهيم وجدت عبادة القمر في مدينة (اور) بلـد إبراهيـم وكـان يطلق على القمر اسم (نانار)، كما عبدت الشـمس وأطلـق عليهـا (شـماس) كمـا وجدت عبادة الكواكب وأشهرها كوكب الزهرة أطلق عليها (عشـتار) وكوكـب المريخ (مردوخ)».[1]

٢- لقد كان لتعدد الآلهة شكل آخر يتمثل في عبادة الأصنام، التـي توارثهـا الأبناء عن الآباء، مقلدين ما وجدوا عليه آبائهم، معطلين عقولهم عن الوصـول إلى عبادة الله الواحد الأحد.

قال تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ۞ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ۞ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ۞ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضـلال مبين ۞ قـالوا أجئتنـا بـالحق أم أنـت مـن اللاعبين ۞ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنـا علـى ذلكـم من الشاهدين﴾.[2]

لعل من أهم مـيزات دعـوة الأنبيـاء والرسـل لأقوامهـم، كـي يوحـدوا اللـه، حضهم على إعمال العقل والفكر، وترك التقليد للآباء، وبذلـك فهـم يـأملون مـن جيل الشباب استيعاب دعوتهم، أكثر مما يأملون قبول دعوتهم من قبل كبار السن، لأن هؤلاء من الصعوبة جداً أن يتراجعوا عـن معتقداتهـم التـي أعطتهـم شـيئاً مـن الاستقرار النفسي على الرغم من عدم صوابيتها أحياناً، ودعوة الأنبياء والرسل هـي من أجل المستقبل القريب والبعيد معاً.

وقوم هود عليه السلام اتهموا نبيهم عندما دعاهم إلى التوحيـد، بأنـه مجنـون أصابتـه بعض آلهتهم بسوء.

قال تعالى: ﴿قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ومـا

---

(١) طبارة، عفيف عبد الفتاح، مع الأنبياء في القرآن، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، [د.ت]) ص:١١٨.

(٢) سورة الأنبياء: ٥١-٥٦.

نحن لك بمؤمنين ۞ إن نقول إلا اعتراك بعض إلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾.[1]

أما قوم فرعون فدعوا إلى مكافحة دعوة موسى عليه السلام المفسدة في الأرض كما قالوا، لأنها لا تقول بآلهة فرعون ولأنها ترى أن هناك إلهاً واحداً. قال تعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾.[2]

إلا أن الآخر الذي يقف في وجه دعوة الرسول لا يقبل إلا بإبادة صاحب الدعوة الموحدة، وبذلك يحاول الخلاص منه، لأنه لم يستطع أن يكسب الجولة مع الرسول، بالحجة والحوار، كيف لا؟ وهذه الدعوة تهدد مكانته ومركزه الذي وصل في بعض الأحيان إلى درجة التأليه.

قال تعالى: ﴿قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ۞ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ۞ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾.[3]

ويضرب القرآن بفرعون مثالاً على ادعاء بعض الملوك الألوهية من خلال حواره مع موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قال فرعون ومارب العالمين ۞ قال رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين ۞ قال لمن حوله ألا تستمعون ۞ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ۞ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ۞ قال رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون ۞ قال لئن اتخذت إلها غيري

---

[1] سورة هود: ٥٣، ٥٤.

[2] سورة الأعراف: ١٢٧.

[3] سورة الأنبياء: ٦٦-٦٨.

لأجعلنك من المسجونين﴾.[1]

وفي تجربة مماثلة بين رسول وملك أدعى أنه يحيي ويميت، يتكرر ظهور الملك المتأله في التاريخ البشري.

قال تعالى: ﴿الم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين﴾.[2]

لقد استمرت دعوة التوحيد عبر التاريخ الإنساني بدءاً من آدم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ في سلسلة متصلة الحلقات، محاولة إبعاد البشر عن الشرك، وعبادة آلهة متعددة من الكواكب والأصنام والأشخاص.

ومن هنا اعتبر الإسلام كغيره من الديانات السماوية أن الشرك هو عدوه الأول والأخير، لذا جاء محارباً للشرك على كافة مستوياته، لما لهذا الاعتقاد المنحرف من خطر على إنسانية الإنسان، وعلاقته بربه، وبأفراد جنسه.

قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾.[3]

---

(1) سورة الشعراء: ٢٣-٢٩.

(2) سورة البقرة: ٢٥٨.

(3) سورة النساء: ١١٦.

المبحث الثاني

البلاغ المبين

لقد جرت سنة الله في خلقه أن لا يعاقب أحداً إلا بعد أن يبعث فيهم رسولاً. قال تعالى: ﴿.. وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾.[1]

وعندما يرسل الله الرسل إلى البشر يقطع على المشركين طريق العذر. فلا حجة لهم يتذرعون بها بأن الله لم يوضح لهم طريق الهدى الذي يسيرون عليه. قال تعالى: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾.[2] أما الجماعة البشرية التي لم يصل إليها البلاغ فهي غير مكلفة بتعاليم الدين، وبذلك ارتبط التكليف بالبلاغ المبين، لكن من يقوم بمهمة البلاغ المبين؟

إن الرسل هم من اختارهم الله واصطفاهم لهذه المهمة الجليلة والخطيرة، ويقع على عاتقهم عبء هذه المسؤولية، فهم مأمورون من الله سبحانه وتعالى بتبليغ رسالاته، وتوعد الرحمن من يكتم الحق، ويقصر في أداء واجبه من الرسل، على الرغم من كل الصعوبات والمحن التي تعرضوا لها، لأن طريق إبلاغ الرسالات محفوف بالمخاطر.

---

[1] سورة الاسراء: ١٥.

[2] سورة النساء: ١٦٥.

قال تعالى: ﴿... وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾.[1]

ولا يكون البلاغ مبينا، إلا إذا اتصف بوضوح المعنى، وقوة الحجة ومنطقية الفكرة. أما وضوح المعنى فيتجلى في بعث الله سبحانه وتعالى للأنبياء والرسل كل بلسان قومه حتى يفقهوا قوله، من خلال الحوار اللفظي بين الرسول وقومه، بحيث لا تكون هناك ذريعة لهم بأنهم لم يفهموا كلام الرسول المتحدث إليهم بلغة أخرى، وهذا لو تم لمنع الاتصال بين الطرفين لصعوبته ولتعذر إمكانية التواصل.

قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾.[2]

مادامت مهمة الرسول محصورة في البلاغ المبين وعدم كتمان الحق، فلا لوم عليه إن لم يستجيبوا له بعد أن جعل خطابه إليهم واضحاً بيناً، ولم يكتم الحق مهما لاقى من صعوبات في سبيل نشر العقيدة بأوضح صورها، وتاريخ الأنبياء والرسل حافل بصور شتى من هذا الأسلوب الدعوي فنتائج الدعوة من حيث الكم الاجتماعي ربما كانت معدومة، أو قليلة جداً، نظراً لزمن الدعوة واستمرار الرسول بمهمة التبليغ، ومع ذلك لابد من استمرار مهمة البلاغ المبين من قبل الرسل، فيأتي بعض الأنبياء والرسل ومعهم نفر قليل ممن آمن برسالتهم ودعوتهم إلى الله.

قال تعالى: ﴿.. فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾.[3]

لم يدخر الأنبياء جهداً في بيان دعوتهم بشكل واضح ومفهوم، إلا أن أقوامهم أصروا على كفرهم حتى أن قوم نوح عليه السلام، كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لايسمعوا كلام النبي الداعي إلى توحيد الله، وكانوا يوصون أبناءهم قبل موتهم بعدم إتباع نوح عليه السلام الذي دعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، ولمدة

---

[1] سورة العنكبوت: ١٨.

[2] سورة إبراهيم: ٤.

[3] سورة المائدة: ٩٢.

(٩٥٠) عاماً. فرغم العناد والرفض والمحابهة بالقتل لم يلجأ إلى قتالهم، وإنما لجأ إلى الصبر، حتى ولو اتفقوا على قتله، لقد استنفذ الفرص معهم تماماً، لذا كانت دعوته عليهم بالدمار.

قال تعالى: ﴿قال ربي إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ۞ فلم يزدهم دعاءي إلا فرارا ۞ وأني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ۞ ثم إني دعوتهم جهاراً ۞ ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولاتنظرون﴾.[2]

إن أكثر ما يجعل الدعوات وضوحاً، هو اعتمادها الحوار العقلي الذي يصل بالإنسان المفكر إلى الإيمان بوحدانية الله، عقلاً وتدبراً، تفكيراً ناقداً، لا تقليداً لمعتقدات الآباء، لأن ليس كل ما عليه الآباء يكون بالضرورة سليماً ومنطقياً.

وعندما يتجاوز الإنسان الأصنام الفكرية - بعض معتقدات الآباء الخاطئة على كافة المستويات - يستطيع الوصول إلى الحقيقة، وهذا التعبيد للطريق بشكل شخصي يجعل الإنسان في مأمن من انحرافات الطريق ومفاجآته وبهذا طالبنا الله في مجال العقيدة.

قال تعالى: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ۞ وكذلك ماأرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ۞ قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم

---

[1] سورة نوح: ٥-٩.

[2] سورة يونس: ٧١.

قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾.[1]

هكذا نجد في تصرف الطبقة المترفة المعادي لدعوة الأنبياء والرسل دليل على أن من يمثل هذه الطبقة لايهمه الخلاص الاجتماعي، بل همه الاستمرار والاستقرار في الوضع الراهن الذي يحقق مصالح هذه الطبقة ويحافظ على امتيازاتها.

لقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بأنه حجة في بلاغه المبين. قال تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه....﴾.[2]

لقد بدأ إبراهيم دعوته بأبيه صانع أصنام القوم، ثم بقومه، مبيناً زيف عبادتهم، وتابع دعوته بعمل حسي عندما حطم الأصنام، متهماً كبيرهم وفق حجة عقلية غاية في الإدانة لعبادة قومه وآلهتهم التي لم تستطع الدفاع عن نفسها. وبهذا العمل – تحطيم الأصنام – انتشر خبر إبراهيم في المملكة، مما جعل المواجهة مع الملك شيئاً لابد منه. قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ۞ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ۞ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لاأحب الآفلين ۞ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكون من القوم الظالمين ۞ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون﴾.[3]

وقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم

---

[1] سورة الزخرف: ٢٢-٢٤.

[2] سورة الانعام: ٨٣.

[3] سورة الانعام: ٧٤-٧٨.

الظالمين﴾.[1]

من خلال هذه الآيات نجد أن إبراهيم عليه السلام اعتمد في دعوته على التسلسل في النفي حتى توصل إلى اليقين، وذلك احتجاجاً لدينه، وتزييفاً لدين قومه أتى بالحجج على سبيل التدرج في الإلزام، لأن القوم كانوا يعبدون الأصنام ينحتونها على أسماء الكواكب والشمس والقمر ونحوها،فأراد أن يبين لهم أن الكواكب والشمس والقمر لاتصلح لأن تكون آلهة. ثم تتصاعد مستويات الحوار لتصل إلى أعلى مستوى سياسي في البلاد، وذلك مع الملك مباشرة، فكان الحوار الوارد ذكره في الآيات السالفة. ومن خلال الحوار استطاع إبراهيم عليه السلام أن يجر محاوره إلى نقطة لا عودة فيها، وقد أغلق عليه جميع الأبواب التي يمكن أن يفتحها.

فكانت حجج إبراهيم عليه السلام منطقية عقلية يسهل تصديقها، بينما كان الملك لا يملك إلا القوة والبطش بمعارضيه، مما جعله يحركهما عندما خسر في ساحة الحوار العقلي مع خصمه ابراهيم عليه السلام، فأمر بإحراقه كي يتخلص منه، ويستقر له الحكم.

قال تعالى: ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾.[2]

وتبدو أهمية البلاغ المبين في تبليغ الدعوة في ماطلبه موسى عليه السلام من الله تعالى أن يشدد أزره بأخيه هارون لأنه أفصح منه لسانا، إذ كان يعاني من اعاقة في النطق، والبلاغ المبين يحتاج إلى شرح وتوضيح وحوار من أجل بيان طبيعة الرسالة، والعقيدة الجديدة. قال تعالى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾.[3]

فالرسول مطالب باتباع أسلوب البلاغ المبين بالقول اللين والحكمة والموعظة

---

[1] سورة البقرة: ٢٥٨.

[2] سورة الأنبياء: ٦٨.

[3] سورة القصص: ٣٤.